نشوة الحكيم

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسي «فرانسوا دي كوريل»

حدثتك مرة عن الكاتب الفرنسي «فرنسوا دي كوريل»، وعن قصصه التمثيلية، ولعلك تذكر أنا رأينا لهذا الكاتب ميزتين؛ الأولى: أنه ممثل فيلسوف، فالجهاد الذي تشتمل عليه قصصه التمثيلية لا يقع بين أشخاص، بل لا يقع بين آراء عادية قد ألفها الناس، وإنما يقع عادة بين آراء فلسفية يمثلها أشخاص القصة تمثيلًا صحيحًا. الثانية: ميزة فنية خالصة، تذكرنا بكبار الشعراء الممثلين من اليونان، و«بايسكيلوس» منهم بنوع خاص، وتذكرنا أيضًا بقواعد الفن في عصره اليوناني العظيم، وهي أن الكاتب لا يكاد يبدأ الفصل الأول من قصته حتى يعرض عليك موضوع هذه القصة، ويبين لك العقدة التي يجب أن يمضي جهاد الأشخاص والحوادث في حلها، فلعلك تذكر «أرض الجحيم»، وإنك لا تكاد تفرغ من الفصل الأول حتى ترى الجهاد قائمًا عنيفًا بين هذه الخواطر الكثيرة المختلفة: بين الحب والواجب، بين الخوف والرغبة، إلى آخر ما تحدثت به إليك حين حللت هذه القصة.

«فرنسوا دي كوريل» إذن ممثل حقًّا، وفيلسوف حقًّا، ولكن فلسفته — كما قلنا غير مرة — ليست فرحة ولا مبتهجة، وليست تقطر بشرًا وسرورًا، كما أنها ليست عابسة ولا محزونة، وليست تقطر أسى ويأسًا، وإنما هي وسط بين الابتهاج وبين اليأس، وهي إلى الحزن أقرب منها إلى السرور، وإن شئت فقل إنها فلسفة تأخذ الناس على أنهم ناس، فلا ترفع قدرهم إلى حيث لا ينبغي، ولا تحطه إلى حيث لا ينبغي، وإنما تعرف للناس مكانتهم، وتقدر لهم حظهم من الخير والشر، ونصيبهم من الفضيلة والنقيصة، ولا تحمد

ولا تلوم، أو لا تسرف في الحمد واللوم، وإنما تسجل الأشياء كما هي، وتريد أن ترضى عنها كما هي. هذه فلسفة «فرنسوا دي كوريل»، تجدها واضحة جلية في أكثر قصصه التمثيلية، ولكني أريد أن أحدثك عن قصة لهذا الكاتب مثلت في بيت «موليير» آخر السنة الماضية وهي «نشوة الحكيم»، أريد أن أحدثك عن هذه القصة، ولكني لا أدري كيف أحدثك عنها، وقد كان يخيل إلي أني قصرت وحدي عن فهمها، وقدرها، والحكم فيها، ولكني لم أكد أقرأ آراء النقاد الفرنسيين حتى رأيت أن الله لم يختصني بهذا القصور، وأن أكثر النقاد إن لم أقل جميع النقاد قد وقفوا من هذه القصة موقف الدهش الحائر الذي لا يدري ماذا أراد الكاتب أن يمثل، وماذا أراد الكاتب أن يعرض على الناس، رأى كل ناقد في القصة رأيًا يخالف آراء النقاد الآخرين، ولم توفق القصة من الفوز إلى ما وفقت إليه القصص الأخرى، ولكنها لم تفشل، فما زالت، فما زالت تمثل الآن في «بيت موليير»، ولكن النقاد يختلفون في تأويل هذا الفوز القليل الذي نالته القصة، فيلقى بعضهم تبعته على الممثلين، وربما ألقى بعضهم تبعته على الجمهور، ومصدر هذا أن الكاتب لم يحدد موضوع القصة، ولم يبين الغرض الذي يسعى إليه، بيانًا واضحًا، ولم يحاول أثناء القصة أن يجلو هذا الغرض، أو يحدد هذا الموضوع، وأكبر ظني أنه لم يرد إلا أن يتحدث إلى الجمهور حديثًا لذيذًا ممتعًا، مفيدًا مضحكًا من حين إلى حين، دون أن يكون قد قصد إلى خلق جهاد قوي عنيف بين فكرتين فلسفيتين، أو بين مؤثرين من هذه المؤثرات المختلفة التي تدبر الحياة، وإن زعم لنا ناشر القصة أن المؤلف سيضع لها مقدمة تفسيرية تبين أغراضها وموضوعها بيانًا مريحًا، فلنسجل منذ الآن أن هذه القصة قد اختلف النقاد في فهمها، وذهبوا في تأويلها المذاهب، ورضي عنها الجمهور، ولكنه لم يعجب بها إعجابًا لا حد له، وأعلن المؤلف أن من أراد أن يتبين غرضها وموضوعها فلينظر المقدمة التي سيضيفها إليها يوم يقوم بنشرها مضافة إلى قصصه المختلفة، وليس هذا كله مما يحمل على الاعتقاد أن هذه القصة قد كانت آية من آيات الفن، أو أثرًا خالدًا من آثار هذا الكاتب العظيم.

على أني أتعجل فأثبت أنك لا تكاد تقرأ فصلًا من هذه القصة حتى يتنازعك شيئان مختلفان؛ أحدهما: الإعجاب الشديد بجودة اللفظ، وبهذه الثروة الضخمة التي امتاز بها هذا الكاتب من الآراء الخصبة المغنية المغذية التي تجدها في كل حوار، بل في كل جزء من حوار، والآخر: هذه الحيرة التي تحملك على أن تسأل نفسك: ماذا يريد، وإلى أين يريد؟ فليس الجهاد قائمًا بين رأيين، وإنما هو قائم بين آراء، وليس هذا الجهاد عنيفًا، ولا حادًّا

بحيث يحملك على أن تتوقع الشر، وتستعد لهذه الهزَّات القوية التي تستأثر بك أمام كل جهاد عنيف، وليس هو من الفتور واللين بحيث يحملك على أن تستسلم للممثلين، وتستعد للضحك واللذة، هو بين بين، يحملك على أن تضحك، ويخيفك من أن تبكي، وهذه ميزة يجب أن تقدر، ميزة ترفع القصة عن الفتور، وإن لم تصل بها إلى الحدة والعنف اللذين يميزان كبار القصص التمثيلية.

«بول سوترو» رجل غني، ضخم الثروة، له أرض واسعة، ومعامل كثيرة يعمل فيها كثيرون، تكاد تبلغ ثروته المليارات، وهو قد نشأ فقيرًا معدمًا، فتعلم من الفقر الصبر، واحتمال المكروه، وتعلم من الفقر أيضًا كيف يقدر الغنى، ويحسن القيام عليه، وتعلم من الفقر والغنى معًا كيف ينظر إلى الأشياء كما هي فلا يزدريها، ولا يغلو فيها؛ فهو فيلسوف، قد بلغ الستين من عمره، ولكن حياته المنظمة التي لم يفسدها إفراط ولا تفريط قد حفظت له صحة موفورة، وقوة لا بأس بها، بلغ الستين ولكنه شاب، وله ابنة أخت فقدت أبويها طفلة، واضطر هو إلى أن يكفلها، فأنشأها فقيرة، أو خُيل إليها أنها فقيرة، وأخفى عليها ثروته وغناه، وأخذها بما يأخذ به الفقراء أبناءهم من ضروب الشدة والقصد في غير تقتير ولا حرمان، وأخذ يطوف بها في أقطار فرنسا أثناء الإجازات المدرسية فلا ينزلها إلا في الفنادق المتوسطة، ولا يظهر لها قليلًا أو كثيرًا من الثروة التي لا تكاد تعدلها ثروة في فرنسا، فلما بلغت طور الفتاة، وأتمت تعليمها الثانوي أرسلها إلى باريس لتدرس في الجامعة، وأرسل معها مربية ترشدها، وتقوم منها مقام الأم، هذه الفتاة تسمى «هرتانس».

اختلفت «هرتانس» إلى السربون، واختلفت بنوع خاص إلى دروس أستاذ في الفلسفة قد بعُد صيته، وكلف به الناس كلفًا شديدًا، فازدحمت غرفة درسه بالرجال والنساء وبالفتيان والفتيات على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم، ولا سيما في هذه السنة؛ لأن موضوع الدرس كان غريبًا، وكان من شأنه أن يشوق الناس جميعًا، ولا سيما النساء، كان موضوع الدرس في هذه السنة! «لمَ نحب؟» واسم هذا الأستاذ الذي بلغ هذه المنزلة من بُعْدِ الصيت وهو بَعْدُ شاب لم يكتهل «روجيه برميلان».

اختلفت «هرتانس» إلى درس الأستاذ فكلفت بالدرس، وشغفت بالأستاذ، وحملها هذا الشغف وذلك الكلف على أن تلخص دروس الأستاذ، وتبعث بطائفة من هذه الدروس الملخصة إلى الأستاذ ليرى فيها رأيه، فأعجب الأستاذ بالتلخيص، وكتب إلى الفتاة يحدثها بإعجابه، ويحثها على المضي في العمل، ويطلب إليها أن تعرض عليه عملها من حين إلى

حين، فكانت زيارات ومطالعات ومحاورات، ثم كان الحب ينمو ويبسط سلطانه أثناء هذا كله على نفس الفتاة حتى تملك نفسها في يوم من الأيام أن تنبئ أستاذها بما يملأ قلبها من حب وكلف به، فلم يتقبل الأستاذ هذا قبولًا حسنًا، بل أظهر لها شيئًا من الجفاء أهانها وآلمها، فانصرفت مكلومة، ولكنها أزمعت أن تملك قلب الأستاذ، وإذ كان الأستاذ فيلسوفًا، فليس من سبيل إلى امتلاكه إلا بالفلسفة وإذن فقد أخذت فتاتنا تضع كتابًا في الفلسفة موضوعه: «الحب وأثره في الحياة»، ثم كانت الإجازة، ودعاها خالها إلى أن تلحق به في بيته، وكان بيته هذا قصرًا فخمًا في غابة واسعة بعيدة الأرجاء، كان قصرًا يلائم ثروته الضخمة، فدهشت الفتاة حين رأت هذا كله، وأنبأها خالها بما كان قد أخفى عليها، وأعلن إليها أنها ستنوب عنه منذ اليوم في تدبير ثروته الزراعية، وأنه سيفرغ لتدبير ثروته الصناعية، وعرف خالها ما كان بينها وبين الأستاذ؛ فدهش لأن هذا الأستاذ صديقه، ولأن هذا الأستاذ سيصل إلى القصر في اليوم نفسه، واعتزم أن ينظر في هذا الأمر، وإنهم لفي ذلك إذ أقبل جار ينازع خالها في حدود أرضيهما، وهذا الجار شاب قوي، جميل المنظر، حسن الخلق، منطلق المُحيَّا، يعجب النساء، ويترك في نفوسهن آثارًا حسانًا، فكلف الخال ابنة أخته أن تناقش هذا الجار فيما بينهما من خلاف، وتركهما منفردين، وكان بين الفتاة والفتى حوار عادي، ولكنه يدل على أن هناك ميلًا ممكنًا قد يخلق بين هذين الفتيين صلة ما.

وكان الأستاذ قد وصل وتحدث إلى صديقه، وعرف منه هذا الصديق أنه يحب فتاة كانت تختلف إلى درسه، ولكن أسبابًا مالية وفلسفية منعته أن يتقبل هذا الحب حين أعلنته الفتاة إليه، فسأله صديقه عما يصنع لو كانت هذه الفتاة غنية، فأنبأه بأنه يتردد في الاقتران بها؛ لأنه يخشى على فلسفته الفقر، ثم يخشى على فلسفته الغنى، يخشى الفقر الذي يحول بينه وبين التفكير، ويخشى الغنى الذي يشغله بتدبير الثروة عن مشاهدة الفلسفة، ثم يتركه صاحبه في هذا التردد، ويدخل الأستاذ على الفتاة والجار وهما يتحدثان، وهو لا يعلم مكانهما، فيدهشه أن يجد هنا تلميذته وحبيبته، ثم لا يلبث أن يعرف ثروتها، وأنها وارثة خالها، ثم يكون بينهما حوار في الحب والفلسفة، والثروة والغنى، وما يمكن أن يحدث الزواج في الفلسفة من أثر حسن أو سيئ.

فإذا كان الفصل الثاني كانت الخطبة قد تمت بين الأستاذ وتلميذته الغنية الفيلسوفة، ولكن الجار قد كلف بالفتاة، ويظهر أن الفتاة لم تنصرف عن الجار، فأخذ هذا الجار

واسمه «البارون هوبير دي بيوليه» يتكلف العلل والمعاذير ليتردد على القصر، وأخذت الفتاة تستقبله استقبالًا حسنًا، وتسمع لما يقول في شغف وإعجاب، وكان هذا الفتى على جمال خلقه، وقوة جسمه، رجل عمل يكره التفكير الخالص والنظر العقيم، ويريد أن يكون كل شيء منتجًا إنتاجًا عمليًّا، وألا يتكلم الإنسان ولا يتحرك إلا كانت لكلامه وحركاته آثار عملية ملموسة نافعة.

كان يحب الفتاة، وكان رجل عمل بالمعنى الصحيح، وكان الأستاذ يحب الفتاة، وكان رجل تفكير بالمعنى الصحيح، وكانت الفتاة تحب الرجلين، أو يخيل إليها أنها تحب الفيلسوف لفلسفته وذكائه، وتميل إلى رجل العمل لعمله وحسن خلقه، ولكن الفيلسوف كان بفلسفته وتفكيره في شغل عن الفتاة وجمالها وقلبها وعواطفها، كان يحبها حبًّا فلسفيًّا، كان يحب عقلها أو كان يحب نفسه في هذا العقل؛ لأنه كان يرى الفتاة متأثرة بفلسفته، وكان يراها ذكيه، فكان يحب فيها ذكاءها، وكان يحب فيها صورته الفلسفية، كان إذن مشغولًا بالفلسفة عن الحب، ولم يكن رجل العمل مشغولًا بعمله عن الحب، وإنما كان يحب لأنه رجل عمل، وكان الحب عنده عملًا من الأعمال، وكانت الفتاة مضطربة بين هذين الرجلين، فلم يكن بد من أن يجتمعا بمحضر منها، وأن يتحاورا في الحب، يجتمعان ويتحاوران، ويحل الحوار المشكلة أمام الفتاة.

يسأل رجل العمل: لم تحب؟ فيجيب: لنلد، يسخر الفيلسوف من ذلك، فيشتد بينه وبين رجل العمل حوار ينهزم فيه الفيلسوف؛ لأنه يكبر فلسفته أن يناقش فيها من لا علم له بها، ويخلو «هوبير» بالفتاة، فيتحاوران ويتحدث كل منهما بحياته إلى الآخر، فيظهر بينهما شيء هو الحب، ولكن الفتاة لا تريد أن تسميه هذا الاسم، ولا تريد أن تفكر فيه؛ لأنها مخطوبة، ولأنها قد وعدت بالوفاء لأستاذها الفيلسوف، تنكر حبها لهذا الشاب، ولكن هذا الحب يملؤها، ويتسلط عليها، فإذا أخذ الأستاذ يتحدث إليها في الفلسفة بعد حين انصرفت عنه، قائلة في سخرية: دعني فإني أريد أن أجني بعض الأزهار. يظل الأستاذ متصلًا بفلسفته وحبه الفلسفي، ويعمل في نفس الفتاة رجل العمل وصورته، وبلاؤه في الصيد، وحياته المنتجة المملوءة، وصحته القوية المعجبة، فلا تكاد تنام الليل، أما رجل العمل فلا يذوق طعم النوم.

فإذا كان الفصل الثالث ظهر ظهورًا جليًّا سأم الفتاة، وانصرافها عن الحب الفلسفي؛ لأنها تشعر بعواطفها وميولها وشهواتها، وترى أن الفلسفة والذكاء الخالص لا يرضيان هذه العواطف، ولا هذه الميول، ولا هذه الشهوات، وهي في الوقت نفسه شريفة وفية، لا

تريد أن تغدر، ولا أن تنكث، فتحاول أن تستصبي عاشقها الفيلسوف، وتذكره أن الحب يستطيع أن يعيش على الأرض كما يستطيع أن يعيش في السماء، وبأن العقل وحده ليس مصدر الحياة ولا غايتها، وبأن في الجسم وجماله مدعاة للذة والصبا. تحاول ذلك فتتكلف ما يصبي، وتلقي بنفسها عارية في فسقية في الحديقة أمام الأستاذ يراها وتتجاهل أنه يراها، فلا تكاد تفعل ذلك ولا يكاد الأستاذ يرى منها ذلك حتى ينصرف وجهه إلى كتاب في يده، ويولي مدبرًا. فاقدر أنت ما يحدث هذا الانصراف في نفس الفتاة من ألم وأسف ويأس، ولكنها تخرج من الماء، فتشعر بأن عينًا مختبئة تلحظها من كثب، فيملكها الحياء، وتعدو إلى القصر حيث تجد مربيتها، فتتحدث إليها بما فعلت، وما حاولت، وما رأت، وتتحدث إليها بأنها تخشى أن يكون رجل العمل هو الذي كان يلحظها من كثب، وهما كذلك إذ يقبل رجل العمل، فلا تشك في أنه كان يلحظها فتوسعه لومًا، وتأنيبًا، وتظهر الحوادث أن الرجل قد كان بريئًا مما اتهم به، وأن الذي كان يلحظها إنما هي امرأة تعمل في أرض خالها، ولكن الحب بينها وبين الشاب يقوى وينمو، ويشتد سلطانه، وإن حاولت الفتاة أن تخلص من هذا السلطان.

يحس خالها ذلك فيحاول أن يلفت الأستاذ الفيلسوف، وأن يستنزله من سماء الفلسفة إلى أرض الحب، فينزل ولكن قليلًا ينزل، ولكن ريثما أن الحب والفلسفة شيئان لا يتفقان، فلا يلبث أن يصعد إلى السماء، ولا يلبث أن يضحي بعواطفه وأهواء نفسه وحبه في سبيل الفلسفة، فيخطب الفتاة لهذا الشاب، وتقبل الفتاة، ويقبل الشاب، ويرضى الخال، ويسافر الأستاذ.

هذه القصة لخصتها تلخيصًا شديد الإيجاز مخلًّا بكثير من معانيها، مضيعًا لكثير مما فيها من الآراء القيمة، فلم أترجم لك منها شيئًا، ولم أتلُ عليك منها حوارًا، وأحسب أنك قد ألممت بها إلمامًا، وأحسب أنك تشعر معي بأن هذه القصة تبعث الحيرة في نفس من يقرؤها، ومن يشهدها، فماذا أراد الكاتب؟ أأراد أن يقارن بين الفلسفة والعمل، وأن يفضل العمل على الفلسفة؟ فإن أراد هذا فقد ظلم الفلسفة؛ لأنه مثلها تمثيلًا سيئًا، ووضع الأستاذ الفيلسوف موضعًا مضحكًا، يشبه موضع الفلاسفة الذين يسخر منهم «موليير»، وغير «موليير» من الممثلين المضحكين. وقد كان الإنصاف يلزمه أن يمثل الفلسفة تمثيلًا صحيحًا كما مثل العمل تمثيلًا صحيحًا؛ حتى تكون نتيجة الخصومة بينهما مقنعة للقراء أو للنظارة، أم أراد أن يدرس نفس هذه الفتاة، وأن يبين أن الحب الفلسفي الذي لا يطمع إلا في الذكاء، ولا يرغب إلا في اتحاد الميول العقلية الخالصة ضعيف الأثر في نفوس

النساء؛ لأنه يهمل أشياء لم تهملها الطبيعة: يهمل القلب، والعاطفة، والحس؟ فإن كان أراد هذا فليس هذا بجديد، وإنما هو شيء مألوف قاله الناس، وأكثروا من الخوض فيه، أم أراد الأمرين جميعًا؟ أم لم يرد شيئا منهما، وإنما حاول أن يعرض على قرائه ونظارته طائفة من الخواطر والآراء ليست متسقة ولا متصلة، فتكلف لها صورة القصة التمثيلية ليوجد بينها الاتساق والاتصال؟ ذلك ما أظن، وأرى أن الكاتب إن كان قصد إلى هذا فقد وفق توفيقًا لا بأس به، ولكنه لم يحسن إلى التمثيل، فإن التمثيل لا يقصد به إلى عرض الخواطر والآراء، وإنما يقصد به قبل كل شيء إلى تصوير الحياة الواقعة، أو إلى تصوير المثل الأعلى للحياة تصويرًا يملك على الجمهور قلبه وهواه، ويوجهه إلى الطريق التي يريد الكاتب أن يتجه إليها، وليس من شأن هذه القصة أن تترك في نفس الجمهور مثل هذا الأثر، ولكن من شأنها أن تعجب القارئ، وتلذه، وترفه عليه، وقد كان خليقًا بها أن تبسط في كتاب لا في قصة تمثيلية.